http://www.almadapaper.com - E-mamil: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1482) السنة السادسة -الاربعاء (15) نيسان 2009

الآراء الـــواردة فـي الـصفـحـة تعبر عـن وجـهـات نـظـر كـتـابـهـا ، وقـد لاتـتـفـق بـالـضـرورة مـع وجـهـة نـظـر الـجـريـدة

شارع المتنبي يزخر بالحياة الفتية والثقافة ويزيده رفعة الجادرجي بهاءً

كاظم حبيب

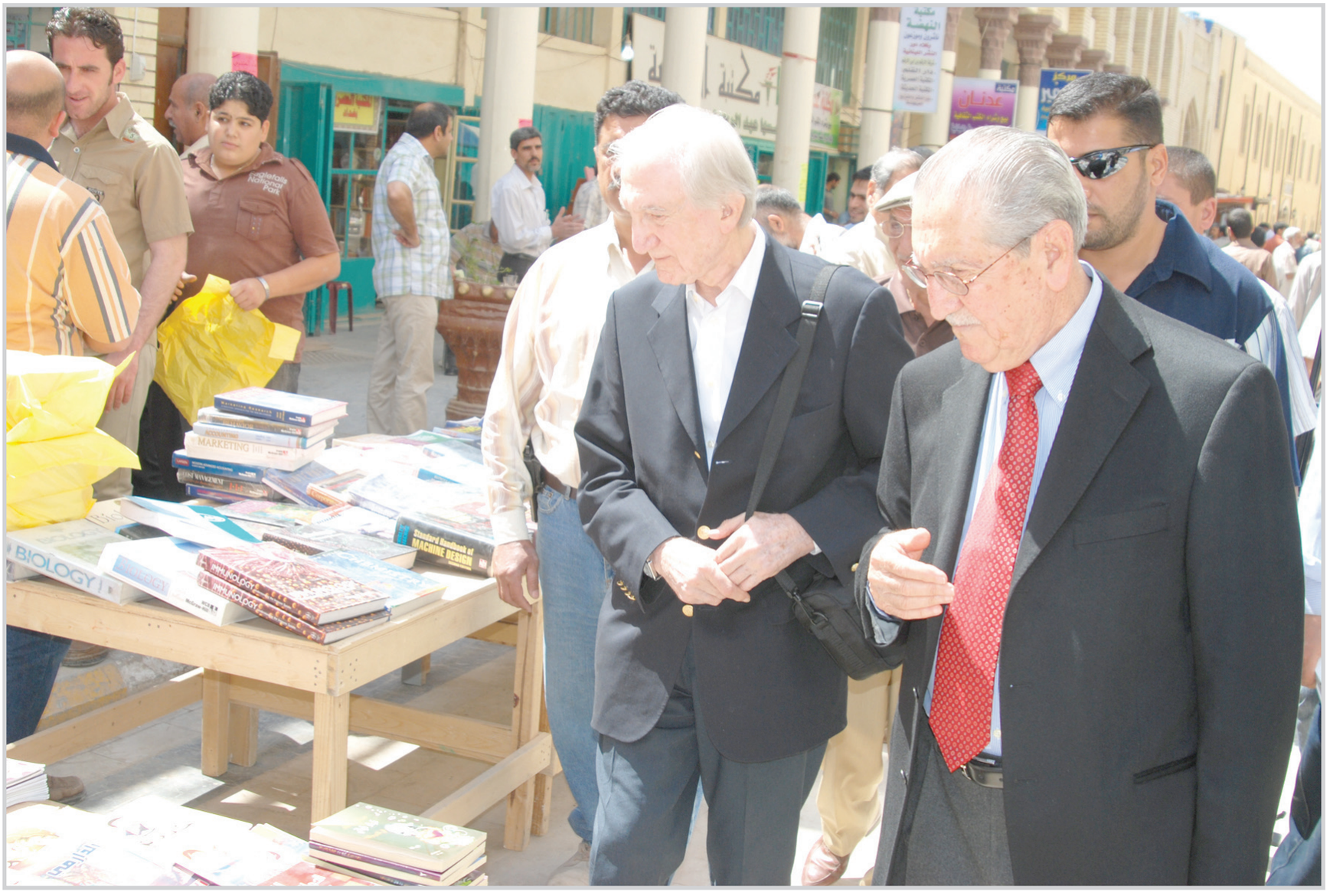

حين اقتربت من شارع المتنبي ببغداد شعرت بإحساس عجيب، إحساس العاشق المتيم الذي حرم من حبيبته وأجبر على مفارقتها ردحا طويلاً من الزمن، ثم عاد إليها فوجدها في حلة جديدة غير تلك التي كانت ترتديها قبل ذاك ولون شعر جديد ومساحيق وجه جديدة ورائحة عطر فواح تغلبت على رائحة الكتب القديمة، رغم أنها لم تتغير من حيث المضمون، ولكنها اغتنت بالجديد من الناس والكتب والمثقفات والمثقفين، شارع جديد وحياة جديدة وتطلعات متفائلة وسط خرائب مريعة تسببت بها قنبلة سقطت على بغداد فأحالتها خراباً وغبارا، كما عبر عن ذلك الأستاذ رفعة الجادرجي في مؤتمره الصحفي.

ورغم أن النسوة في هذا الشارع قليلات وكثرة كاثرة من الذكور القراء والمتفرجين.. فقد بدا فرحاً ينتظر المزيد من الناس وخاصة النسوة العراقيات اللواتي حرمن من الحرية التي يتمتع بها الذكور في مجتمع ذكوري لا غير.

فقد الشارع الكثير من الأحبة، الكثير من الوجوه الصبوحة المشرقة من مختلف الأعمار، من أصحاب الذكر الطيب، من المثقفين من باعة الكتب والطباعين وغيرهم، فقدناهم مبكراً على أيدي حثالة من المتوحشين الذين أرادوا الغوص في دم العراقيات والعراقيين أكثر فأكثر ليذكرونا بهولاكو وما فعله ببغداد في العام ١٢٥٨، وتأجيج الحرب الطائفية، خسئوا، فالشعب رفض هذه الفتنة والحرب الطائفية وراح يلملم أوضاعه ويداوي جراحه ويعيد تدريجياً بناء ما هدم بمعاول الإرهابيين.

لقد دمعت عيناي حين اقتربت من ذلك الرجل بجسمه المتين المتماسك، الذي اقترب عمره من الستين، وهو يقف أمام كشك كتبه وينادي بأعلى صوته:

سلام على جاعلين الحتوف
جسراً إلى الموكب العابر
سلام على مثقل بالحديد
ويشمخ كالقائد الظافر

فوجدت نفسي أردد معه تلك الأبيات الثورية للجواهري العملاق. صافحته بحرارة وشعرت بالمرارة التي عاشها لفترة غير قصيرة رغم البسمة على شفتيه، وهو الآن يعبر عن فرحته بعودة شارع المتنبي إلى الحياة ليتنفس من خلاله الناس ويشعروا بطعم الحياة والثقافة، بعد التفجير العدواني الغادر الذي تعرض له وما عانته مقهى الشابندر من تدمير ووفيات عائلة الإنسان الصابر والصامد على الألم، السيد الشابندر.

شارع المتنبي يعج بالمارة القراء ومشتري الكتب والباعة الظرفاء ويصعب على الإنسان أن يمر دون أن يلتقي بهذا الصديق أو ذاك أو بتجمعات صغيرة التقت في هذا الشارع المقدام بأهله ومريديه لتتبادل الأحاديث والهموم والذكريات أو لتتناقش حول هذا الكتاب أو ذاك.

التقيت بعشرات الأصدقاء والأحبة وأنا في طريقي إلى قاعة المدى في شارع المتنبي لحضور احتفائية المدى بعودة الفنان المعماري المبدع والكاتب الأستاذ رفعة الجادرجي، الذي غادر العراق مع زوجته الكاتبة الشفافة بلقيس شرارة بعد معاناة لا إنسانية في ظل نظام استبدادي وشخص متوحش، نظام وشخص صدام حسين.

كان المكان صغيراً رغم كبره بالنسبة إلى مواقع شارع المتنبي، وكان الحضور كثيفاً جداً. وكانت الوجوه فرحة بلقاء الفنان وزوجته والاستماع لما سيقدمه لنا من فكر نير ومعرفة كبيرة وتجربة غنية وخبرة متراكمة.

استمعنا إلى الصديق العزيز الأستاذ الناقد الأدبي والكاتب ياسين النصير وهو يقدم لنا بكلمات مختارة وصادقة رفعة الجادرجي، أحد فلاسفة ومنظري فن العمارة الحديثة في العراق والعالم العربي والمستلهم للتراث العربي والعالمي والحائز على الكثير من الجوائز العربية والدولية والمصمم لنصبي الحرية والجندي المجهول والكاتب المبدع في "الأخيضر والقصر البلوري" وغيره من الكتب والأبحاث والتصاميم، هذا الإنسان النحيف واللين العود والرقيق بمظهره والمتين والمتماسك بفكره ومعارفه وحزمه العلمي وصرامته الفكرية وخبرته ومواقفه والمرهف بحسه والحرفي البارع في أسلوب إدائه والشحيح المقل في كلامه، الذي بلغ الثمانين ونيفاً من عمره، ونتمنى له طول العمر مع حبيبة ورفيقة عمره المديد، حيث تركت الأعوام العجاف وهموم النظام وآلام الاغتراب القسري الكثير من الأخاديد والجروح العميقة الظاهرة على وجهه الباسم الحزين.

ثم استمعنا إلى مداخلته القصيرة والمكثفة جداً والغنية بمضامينها والتي عبر فيها عما يختلج في داخله بعد غياب طويل بسبب طبيعة وممارسات النظام الشمولي الذي ساد العراق وعن مفهومه للعمارة وعن العلاقة العضوية بين مستوى تطور العمارة ومستوى تطور معارف وثقافة الإنسان والمجتمع والتي تتجلى في جمالية أو قبح العمارة المنجزة والمنفذة. وكانت رغبته، كما بدا لي، أن يجيب عن الأسئلة التي تدور في بال مدير الندوة والحضور أكثر من إلقاء محاضرة في موضوع واحد محدد.

استمعنا له بعناية فائقة رغم الضجيج غير المعقول وغير المقبول الذي ساد القاعة الخلفية حيث كانت عملية بيع الكتب تجري على قدم وساق دون الانتباه إلى المحاضرة القيمة التي كان يقدمها لنا رفعة الجادرجي والأحاديث الجانبية التي أفسدت على المحاضر المرهف وعلى الحضور المتلهف الاستمتاع الدائم والكامل بمضامين تلك الأفكار والمعارف التي قدمها لنا ببساطة ويسر كبيرين.

كان رفعة الجادرجي مختصراً ومكثفاً، ولكنه كان واضحا ودقيقاً في إجاباته وفي رؤيته للعمارة وفلسفته في هذا الفن. كان ناقداً جريئاً لقبح العمارة الراهنة وجمودها الذي دام ١٣٠٠ سنة في عالمنا العربي والإسلامي، فضلا عن العوامل التي تسببت في هذا الجمود الفكري الذي لم يقتصر على العمارة وحدها، بل شمل مختلف جوانب الحياة. لقد عبر عن تلك العلاقة الجدلية بين مستوى حرية وفكر ومعارف وذوق ووعي الإنسان وثقافته ودوره وبين مستوى فن العمارة وبقية الفنون الإبداعية.

لقد طرح الكثير من الأفكار القيمة والنيرة التي تستوجب مقالة خاصة، ولكن أحاول تلخيص ثلاثة أفكار مهمة واساسية منها، وهي:

١. عاش وما زال الفكر العربي والعمارة العربية في حالة من التجميد منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة، في حين عرف الفكر والعمارة الغربية التطور وقطعا أشواطاً بعيدة، والفجوة بينهما قد اتسعت كثيراً.

٢. ليس للوقت في العالم العربي والإسلامي من أهمية، في حين يعتبر الوقت اقتصادا. ولا بد من أن أشير إلى "قانون اقتصاد الوقت"، وهو قانون موضوعي، الذي يفترض أن يتجلى في إنتاجية العمل أو في تقليص الوقت المصروف في إنتاج وحدة واحدة سواء أكانت سلعة مادية أم روحية. إذ كلما تقلص الوقت المبذول كلما ازدادت الإنتاجية واتسع المردود مع العناية بالنوعية.

٣. إن الجهل والوعي المتخلف ينتجان عمارة متخلفة وفناً متخلفاً، في حين ينتج العلم والوعي المتقدم عمارة جميلة وفناً جميلاً.

وإذ تحتاج محاضرته إلى مقالة خاصة، فأني بهذه المقالة القصيرة وددت أن أشير إلى الظاهرة الثقافية الجديدة المتجددة التي بدأت تنمو ببطء شديد في العراق ليس بسبب المثقفات والمثقفين الذين يعج بهم العراق وخارجه، بل بسبب قلة العناية بهم وبالثقافة وبالحياة الثقافية التي هي العماد الروحي للإنسان والتي تساهم في إنقاذه من الفكر الشمولي والعنف والقسوة وضيق الأفق والغيبيات والفكر الطائفي المقيت.

وخلال الفترة ذاتها ودع شارع الثقافة العراقية والمجتمع العراقي بحزن بالغ ودموع غزيرة الفنان المسرحي والمخرج المبدع وأحد أعمدة المسرح العراقي الأستاذ الفنان قاسم محمد إلى مثواه الأخير، حيث رحل عنا في وقت نحن أحوج ما نكون له ولأمثاله من المبدعين والمثقفين الديمقراطيين، بعد أن عانى الكثير من الغربة والمرض. ودع الراحل الطيب حشد من المثقفات والمثقفين، ولكن ستبقى أعماله وكتاباته ودوره وإنسانيته في حياة المسرح العراقي شامخة في ذاكرة الشعب العراقي باعتباره أحد بناة المسرح البارزين والمساهمين في تطويره وإغنائه وتقدمه. فالتعازي الحارة لعائلته ولكل المسرحيين ومشاهدي المسرح العراقي ورواد الثقافة العراقية، والذكر الطيب للراحل العزيز.

وددت بهذا المقال أن أعبر عن فرحتي بعودة شارع المتنبي إلى محبيه بحلته الجديدة وأن أجدد شكري لمن ساهم بعودة الحياة إليه بسرعة فائقة وإلى كل العاملات والعاملين فيه وإلى كل مريديه والمرتوين بما فيه من كتب وثقافة متنوعة.

لتنتصر الحياة الزاهية والمزدهرة لشارع المتنبي ومن فيها وليبق الذكر الطيب لمن غادرنا بالرغم منه ومنا.

تعليم الفتيات في العراق .. تراجع كبير وصمت طويل

د. جليل وادي

ظاهرة مخيفة

من الظواهر اللافتة في العملية التربوية والتعليمية هو التراجع الكبير الذي يشهده واقع تعليم الفتيات، قياسا بعقود خلت، اما اذا قورن هذا الواقع بما انجزته دول الجوار او غيرها، فأن هذه الظاهرة تشير الى تداعيات محتملة تطول المستقبل، وانها بالتأكيد تقود الى معطيات لاتتوافق مع خطط التنمية التي يراد بها الارتقاء بالعراق الى ما ينبغي ان يكون عليه.

وهنا لابد من الاشارة الى ان هذه الظاهرة اتضحت خلال العقدين الاخيرين لكن بوادر تداعياتها تجلت خلال السنوات الاخيرة،وهي لم تعد بخافية، بل من الوضوح الكافي ما ينفي حاجتها الى اعداد البحوث والدراسات لكشفها، الا انها بالمقابل تقتضي من الجهات المعنية توصيفا دقيقاعلى وفق المعطيات المتوافرة في احصائيات الدوائر التربوية والتعليمية، ليتسنى الوقوف على طبيعتها والتعرف على حدودها وابعادها، بما يقود الى ايجاد السبل التي من شأنها تدارك مخاطرها او ايقاف تداعياتها في المرحلة الراهنة على اقل تقدير.

وتأتي هذه الافكار جزءا من المداخلة التي قدمها كاتب المقال في الحلقة النقاشية التي اقامها مركز ابحاث الطفولة والامومة لتدارس واقع تعليم الفتيات في محافظة ديالى، ما يدعونا الى القول ان دراسة هذه الظاهرة التي تنطوي على قدر كبير من الاهمية تؤشر صحة التوجهات التي تسير على وفقها بعض المؤسسات الاكاديمية، ومع ان الحلقة قد شخصت جانبا من هذه الظاهرة في اطارها الشمولي، الا ان الامر يجب ألايتوقف عند هذه الحدود، بل ان مثل هذه الظواهر الخطرة تتطلب بحثها في اطار وطني، بخاصة انها تشكل واحداً من ابرز التحديات التي تواجه منظومة التربية والتعليم، فضلا عما تشكله من عائق امام خطط التنمية، بوصف التعليم مفتاحاً للتنمية بأشكالها المتعددة، ناهيك عن استهدافها لشريحة اجتماعية كبيرة ممثلة بالنساء اللواتي يعول عليهن كثيرا في بناء العراق عبر تمكينهن من اداء الدور الفاعل بهذا الشأن، وهو ما اصبح يشكل هما شاغلا للعديد من المنظمات الدولية المعنية بشؤون المرأة.

وكانت المداخلة قد انطلقت من التأكيد ان تراجع تعليم الفتيات يشكل ظاهرة عامة في مختلف ارجاء البلاد، وبخاصة في الريف العراقي، ما يبعث على الاحباط، ذلك ان الاسرة الريفية وحتى منتصف الثمانينيات من القرن الماضي تمكنت من رفد البلاد بالكثير من الكفاءات بضمنها الكفاءات النسوية، بل يمكن القول انها شكلت منافسا شديدا للمدن في هذا المجال على الرغم من الصعاب القاسية والمشكلات المعقدة التي كانت تواجه الريف آنذاك، لكن مساهمة ريف اليوم صارت ضيقة وشبه معدومة بالنسبة للفتيات، بل من المحزن ان يكون وصولهن الى الدراسة الجامعية حالة استثنائية، بينما القاعدة تقف عند السماح لهن باكمال الدراسة الابتدائية في احسن الاحوال، وهذا ما يدعونا الى تساؤل بالغ الاهمية، ماهي ابرز التحديات التي تقف حائلا امام تعليم الفتيات؟ .وبهذا الصدد يمكن ان نؤشر مايأتي:

تراجع الثقافة المستنيرة

ساد عموم العراق والريف منه بوجه خاص تراجع في نوع الثقافة السائدة، ذلك ان عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات قد شهدت اتساعا في الثقافة المستنيرة، وتطلعا شعبيا واضحا للتحلي بها، الا ان جملة المتغيرات السياسية والاقتصادية وغيرها مثلت نكوصا في مسيرة هذه الثقافة لصالح ثقافة متخلفة لم تعمل المؤسسة الرسمية على تداركها في الوقت المناسب للجهل بها او الانشغال بغيرها، وكان الاهمال السياسي لمنظومة التربية والتعليم وضعف اداء هذه المنظومة سببا اساسيا في هذا التراجع، ذلك ان التربية والتعليم يشكلان المنبع الاساس الذي تنهل منه وتثرى به عمليات تنمية الثقافة المستنيرة التي يتطلبها الواقع الثقافي الراهن، وبالتالي تعبيد الطرق امام عملية تعليم الفتيات، وبعكسه فأن الثقافة المتخلفة ستفعل فعلها في الجهود السائرة باتجاه تمكين المرأة العراقية وانتشالها من الضياع الذي تعيشه.

شيوع الثقافة المتطرفة

على الرغم من ان هذه الثقافة لاتمت الى الدين الاسلامي بصلة، الا انها اتخذت من الدين اطارا تمكنت من خلاله من تضليل البسطاء من الناس، الامر الذي حمل كثيرين على اتخاذه مبررا دينيا واخلاقيا للحؤول دون تعليم الفتيات، ونلفت الى ان هذه الثقافة كثيرا ما تشيع في الاوساط الاجتماعية التي تعاني غيابا للمؤسسة الرسمية او حضورا باهتا، وكان ذلك سمة بارزة في الاداء الرسمي خلال العقود الاخيرة، وبشكل جلي خلال سنوات ما بعد الاحتلال، اذ تعذر على المؤسسة الرسمية تشكيل حضور فاعل بمقدوره التصدي لتلك الثقافة عبر البرامج الثقافية المختلفة،جراء انشغالها بما تظنه اكثر اهمية من العناية بالثقافة، او هيامها بتحقيق المنجزات الآنية وتجاهل تلك التي تعطي ثمارا آجلة وتمثل ذلك بصورة واضحة في كالثقافة.

تلاشي قيم الشهادة

ساد التسعينيات حيث تعرض فيه العراق الى حصار اقتصادي دولي شديد، الامر الذي اضعف الدولة اقتصاديا وقلل من قدراتها على معالجة المشكلات التي ترتبت على ذلك، ما انعكس سلبا على دخل الاسرة نتيجة ارتفاع الاسعار وتدني الرواتب التي يتقاضاها عموم الموظفين بضمنهم حملة الشهادات الجامعية، ومعلوم ان ثقافتنا السائدة تربط بين القيم المادية والاعتبارية للاشياء، بمعنى ان ضعف القيمة المادية يؤدي الى انخفاض القيمة الاعتبارية، وهذا ما قلل من شأن الشهادة الجامعية، وعليه قلت الدافعية باتجاه مواصلة التعليم وبخاصة للاناث، ذلك ان ممارسة اي عمل في القطاع الخاص كانت جدواه الاقتصادية افضل بكثير من الحصول على الشهادة، كما ان التعليم في ثقافتنا للتوظيف وليس للتنوير، وهذا ما حمل على سبيل المثال جل العوائل الريفية على استثمار الفتيات في العملية الزراعية على حساب العملية التعليمية.

انخفاض دخل الاسرة

شكل العامل الاقتصادي تحديا صعبا لتعليم المجتمع عموما والفتيات خصوصا، ذلك ان تدني مدخولات الاسرة العراقية لاسيما خلال فترة الحصار جعل من التعليم مكلفا ماديا للكثير من العوائل التي اجبرت على زج ابنائها في سوق العمل لتتمكن من مواصلة العيش، وتجسد ذلك واضحا في الريف الذي وجدت فيه العوائل صعوبة بالغة بشأن تحمل نفقات تعليم ابنائها ولاسيما التعليم الجامعي الذي قد يكون في محافظات بعيدة عن محل السكن، ما يتطلب نفقات سفر ومعيشة في اقسام داخلية او اجور سكن في حال عدم توفر السكن الجامعي او رداءته.

قلة البنى التحتية

وشكل ذلك معاناة للريف العراقي تحديدا، فأغلب الارياف لاتتوفر فيها سوى مدارس ابتدائية ويندر ان تكون فيها مدارس متوسطة او اعدادية، ما يتطلب من طلاب الاعداديات قطع مسافات طويلة لقرى اخرى او الذهاب الى مراكز المدن، واذا كان ذلك ممكنا للذكور، فأنه صعب بالنسبة للاناث، فضلا عن رفض كثير من العوائل لهذا الامر لاعتبارات اجتماعية او امنية وغيرهما، اذ يشكل منع الفتيات من مواصلة الدراسة في مناطق بعيدة اجراء احترازيا لمشكلات محتملة قد يتعرضن لها، وربما منها ما يكون معقدا يتعذر حله لارتباطه بمنظومة القيم الاجتماعية الحاكمة في الريف، وبذلك تحاول العوائل ان تنأى بنفسها عما يعرضها لمثل هذه المشكلات، ولم يشكل هذا الامر معضلة للعوائل في المدن لقرب المدارس، لذلك نلحظ ان الكثير من العوائل الريفية تكتفي بالنسبة لتعليم الفتيات باكمال الدراسة الابتدائية، بينما تسمح العوائل ذات الثقافة المتخلفة في المدن لبناتها اكمال الدراسة المتوسطة، وهذا ما يجعل قرب المدرسة من محل السكن عاملا مهما يدفع بتعليم الفتيات الى الامام حتى عند العوائل المشبعة بالثقافة المتخلفة.

تراخي اجراءات الدولة

لم نلحظ اهتماما كافيا من الاجهزة المعنية بالتربية والتعليم، بل تركت الامور سائبة، تتحكم فيها ميول شخصية واجراءات ارتجالية، وبخاصة في المدارس الواقعة خارج مراكز المدن، وقد نتلمس عذرا لتلك الاجهزة خلال السنوات الاخيرة بسبب تدهور الاوضاع التي شهدتها البلاد بعد احداث التغيير، لكن بالمقابل لابد من التأكيد ان العملية التربوية والتعليمية يفترض ان تكون في مقدمة اولويات خطط التنمية، والا ينظر لها كبقية المجالات على اهميتها، كما تتطلب ان تكون المتابعة لها دقيقة والاجراءات فيها صارمة، ففي احيان يوحي شكلها بانتظامها بينما جوهرها هش.

ولن اتحدث في هذا المقال عن التحدي الامني لانه عابر واستثنائي قد يمارس سطوته لمدة من الزمن كما حصل في تأثيره القاسي على تعليم الفتيات خلال السنوات الخمس الفائتة، لكنه بالعموم لايملك الميكانزمات القادرة على ايجاد علاقات وطيدة ببنية التحديات المذكورة يمكنه من خلالها عرقلة مسيرة المنظومة التربوية والتعليمية لأجال بعيدة.

اراء وافكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. لا يزيد عدد كلمات المقالة على ٧٠٠ كلمة.
٢. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة ومرفق صورة شخصية له.
٣. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
Opinions112@ yahoo.com